خاطرات فلسفية
وتأمّلات جماليّة فنومنولوجيّة لسيرة ذاتيّة
(سعيد توفيق أنموذجًا)

وصال العش*

تقديم

يَفتتح الكاتب المصري والفيلسوف سعيد توفيق[1] ، روايته (الخاطرات: التأمّلات الأولى في ظاهرات الحياة والوجود)[2]، بتأمّل فنومنولوجي لمشروعه الفلسفي بوصفه إنسانا في هذا الوجود، الذي يَحياه داخل العائلة والجامعة والحياة اليوميّة منذ كان طفلاً، فيُعبّر عن الجمالي لأسس عيش يمكن أن تتَّخذ شكل الأثر الفنّي والرّوائي لسيرة ذاتيّة ثريّة وممتعة. وببلاغة منهجيّة شعريّة بنّاءة، تُعبّر عن عمق تجربته الذّاتيّة، التي ما زالت تحمل معه ذكريات وأحلامًا فاتنة، نقصد كتابه الذي يحمل 352 صفحة، نُباشر منذ البداية وجوها تأويليّة لمظاهر الحياة ورُؤى جماليّة فنيّة في حضور العالَم. لقد اتّصلت فلسفته بظواهر عايشها، فتجلّت في كتاب (الخاطرات)، من خلال سيرة ذاتيّة روائيّة، وارتسمت بكتابة جماليّة نقديّة وفكريّة مبدعة؛ لا سيما وقد تمَثّل عالَمه من خلال تحليله لبعض الوقائع الحياتيّة ومحاربته لجمود العقل ودفعه للخروج به من انغلاقه؛ لأنّ الكاتب الفيلسوف في وجه من وجوهه، مدعوّ للنّهوض بالعقل الإنساني، وإلى تعقّب قضاياه في خضمّ عالم الحياة.

تَتفاعل كلّ قضايا وأشياء العالَم في رؤية سعيد توفيق الفلسفيّة والفنومنولوجيّة، وتدعونا إلى تجربة تنفتح على إشكاليّات كثيرة، من بينها فنّ السّيرة الذّاتيّة في الرّواية والانفتاح على الواقع وخبرة الحياة والفنون وأنوار العقل والفلسفة؛ لذلك سنُحاول استنطاق بعض الرّؤى والأساليب المعتمدة في هذه الرّواية، ومدى تأثيرها في القارئ، من خلال استحضار بعض فنون الحياة وخبرته في هذا العالَم وبعض من خيالات وذاكرات ومَشاهد وروائح وموسيقى وأنغام وأشعار ورحلات واستكشافات وأزمنة وأمكنة. فإذا كان تعرّضنا إلى هذا الكتاب، لا نرجو منه سردا تاريخيا لمسيرة حياة، بقدر ما نتطلّع إلى اكتشاف وجهات جديدة في سرد سيرة ذاتيّة، بما هي ظاهرة مستجدّة في الكتابة الفلسفيّة المتأمّلة، وصور وصفيّة مدركة ومتطلّعة لفنون الحياة، وتمرّس إبداعي وفلسفي منفتح على الآخر

* أكاديمي- تونس.

والواقع- فإنّه جدير بنا أن نطرح المشكل في صيغته الإشكاليّة: كيف يُمارس سعيد توفيق فنّ الكتابة في رواية (خاطرات) بوصفه فعلا لسيرة ذاتيّة مقاومة ومتأمّلة ناقدة في خضمّ العلاقة بين الجمالي والفلسفي والفنومنولوجي واليومي؟

1.فلسفة جمال (الخاطرات)

إنّ ما يقوله سعيد توفيق في (الخاطرات) ليس بلغو الكلام، ولكنّه كلام ذكرى استنطق به المتوارث من الحياة؛ فهو يتفكّر في دلالات فلسفيّة، وحياة أحلام طفوليّة، وصور خياليّة، وحوادث واقعيّة، تربطنا جماليًّا بحياته ومغامراته في شوارع القاهرة وأحيائها، مثل حيّ السيدة زينب، الذي ما يزال متأصّلاً في ذاكرته وبعض من مخاطراته البحريّة ومجازفاته البريّة وسفره داخل وطنه وخارجه، فنقصد هذه الأمكنة ونكتشفها من خلال نصّ أثريّ يحمل مسيرة ذاتيّة. أمّا المناحي الشعريّة والجماليّة والفنيّة، فقد تجلّت خاصّة في استدعائه للوطن الأمّ؛ مصر أمّ العالم، والوطن العربي كذلك، وفي تأمّلاته لعالم الحياة الطّبيعيّة في الصّعيد، وعالم الحياة المدنيّة بطابعها الحضري في القاهرة، ثمّ تجواله من دور العروض السّينيمائيّة إلى رحلاته المختلفة في آن.

حملت رواية (الخاطرات) الفلسفيّة تفهّمًا جماليًّا لمعاني الحياة،ـ وخبرة لمسار معيشتها وتسلسل أحداثها، فسجّل من خلالها ذكرياته الحيّة وتأمّلاته الفلسفيّة المباشرة. لقد نقلنا نصّه بانفتاحنا عليه، إلى عمق سؤال كينونته في هذا العالَم، خاصّة بما أدركه من ظواهر الوجود، فدفع بنا سؤال الوجود إلى سؤال معنى الظّهور والحضور في هذه الحياة. فليس سعيد توفيق أول فيلسوف كتب عن سيرته الذّاتيّة؛ فقد سبقته في ذلك سير فلسفية مهمة، مثل عثمان أمين فيما كتبه عن (الجوانية: أصولية عقيدية وفلسفة ثورة)، وما كتبه أيضا زكي نجيب محمود عن (قصّة نفس)، وما كتبه عبد الرّحمن بدوي عن (سيرة حياتي)، ومراد وهبة عن (مسار فكر)، وحسن حنفي في (ذكريات). هذا عن السّيرة الفلسفيّة في مصر، وهناك سير فلسفيّة مهمة في فلسطين، وسوريا، ولبنان قدّمها هشام شرابي في كتابيه (صور من الماضي) و(الجمر والرماد)، وفي المغرب عدد من السير الفلسفيّة، قدّمها العروي والجابري، وفي تونس يمكن أن نذكر آخر ما صدر للفيلسوف التونسي فتحي التريكي في كتابه (الذاكرة والمصير، 2020).

وبالطّبع توجد العديد من السير الذّاتية الفلسفيّة في كامل العالم العربي، لكنّنا سنخصّص النّظر في هذا البحث حول سيرة ذاتيّة للفيلسوف المصري سعيد توفيق، الذي لا نستطيع الحديث عنه دون ذكر أهم الكتب والدّراسات، التي ساهمت في إثراء الفلسفة وعلم الجمال في العالم العربي. يمكن أن نذكر في هذا الإطار أهمّها وأقربها فلسفة إلى كتاب السيرة الذّاتيّة (الخاطرات)، مثل: كتاب (فلسفة التأويل، آفاقها واتجاهاتها)، و(أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة)، و(الفن والإبداع)، وغيرها من الكتب والدّراسات التّأويليّة وفلسفة الجمال أيَضًا[3].

لكن يدفع بنا نصّ (الخاطرات) إلى إدراك قضايا وخبرات وخاطرات تأمّليّة، تُثير القارئ فلسفيًّا وجماليّا وفنيًّا، لأنّنا نتواصل مع أفعال فلسفيّة حياتيّة لظاهرات الوجود الشّخصيّة. يُحيي الفيلسوف سعيد توفيق بهذا الفعل الشّخصي بعضًا من قضايا ومواضيع ومسائل في فلسفة الجمال، كان قد نظّر لها في كتاباته السّابقة، فعمّق بها سيرته الذّاتيّة، ليكشف معناها للقارئ كما هي في الواقع.

إنّنا بانفتاحنا على نصّ الخاطرات نقصد تاريخًا فكريًّا عميقًا، وننفتح على ذكريات عزيزة على الكاتب، ونُدرك البعد الوجودي لظاهرات حياته الشّخصيّة وأحداثها وظاهرات الحياة العامّة وحضوره فيها ووجوده المفعم بالجمال والحبّ والفنّ ومواقفه منها. فنراه مثلاً، يستحضر بشعريّة روحيّة، الفنّ والوطن ويوحّدهما، رغم ما تثيره هذه العلاقة من استغراب لدى القارئ، الذي اعتاد أن يقرن الوطن «بالأمور والأحداث السياسيّة وبالمفاهيم ذات الأبعاد السياسيّة»[4]. ففي الأغنية روح وجمال؛ لأنّها تجمع بين اللّغة الشعريّة واللّحن الموسيقي، الذي يسعى إلى محاكاة المعنى الذي تُشخّصه الكلمة حسب شوبنهاور، ولأنّها تستطيع التّعبير عن مشاعر الفرح والحزن، فتتجلّى الأغنية حضورًا يتّصل بالوطن. فقد تواصلَت بالنّسبة للكاتب الفيلسوف الأغاني الوطنية، التي تحفّز وتُحرّك الرّوح الوطنيّة وتستحضرها، حتّى بعد «النّكسة»، فيقول بصريح العبارة: «تواصلَت الأغاني الوطنية التي تحفّز روح الوطن وتستدعيها رغم مرارة الهزيمة»[5] وتأثيرها على الوطن العربي.

يستدعي الكاتب أيضًا فنون الحياة العامّة، وبعضًا من أبيات شعريّة عديد من الشّعراء والكتّاب والأكاديميين والرّوائيين والسّياسيين، مثل خيري شلبي وحسن طلب وأحمد عبد المعطي حجازي وراجح داود وسيد حجاب وأحمد شوقي وعبد الحليم حافظ ومحمّد عبد الوهاب وأمّ كلثوم وجمال عبد النّاصر، وبعض من تلاميذه، وكثيراً من المبدعين والفلاسفة والمفكّرين. وقد تنبّهتُ في نصّ الخاطرات إلى بعض من أبيات شعريّة للأبنودي، بعنوان «أغنية النّهار»، التي قام بأدائها الفنّان عبد الحليم حافظ، وهي من أغاني الزّمن الجميل أو «الزّمن الحقيقي»، حسب تعبير سعيد توفيق، التي ما زالت إيقاعاتها تُطرب السّمع والرّوح.

عدى النهار،
والمغربية جايّة،
تتخفّى ورا اوراق الشجر
وعشان نتوه السكّة
شالت من ليالينا القمر
وبلدنا قاعدة على الترعة بتغسل شعرها
جانا نهار مَقدرش يدفع مهرها[6]

إنّنا قد نتواصل مع الكاتب في هذا المقام الفنّي الحنيني لبعض الذّكريات بصدق روحي وجمال فنّي، إلاّ أن غرض الكاتب هو مشاركة خبرته مع القارئ، والبحث عن ظواهر صادقة في عالَم الحياة، لكنّها مُدركة بوعي فكري وفلسفة جماليّة. يُبدع المؤلّف خاطرات فلسفيّة من خلال بعض ما تراكم في مخيّلته من ذكريات جميلة للصّداقة الصّادقة، فيقصد خبرة حرّة واضحة مع العالَم والوجود. أفليس «الصّديق الحق هو الوجود المهموم بهمّك»[7]؟

أن نقصد ونتفهّم الكاتب وسيرته الذاتيّة أو خاطرات سيرة ذاتيّة، هو أن نعود إلى نفس الكتاب عدّة مرّات ليعكس لنا أرشيفًا، كان قد كُتب انطلاقًا ممّا سمعه ورآه وأحسّه، فتنعكس مرآة ذاته في نصّ سيرته الذّاتيّة. لذلك يَكون لنصّ الخاطرات حضور ما كان في الماضي والآن، وما يمكن أن يكون في المستقبل. وفي واقع الأمر، فإنّ السّيرة الذاتية التي كتبها المؤلّف في بعض من جوانبها، هي إدراك لما ارتآه أن يكون مستقبلاً. تنتقل السيرة الذّاتيّة تدريجيًّا إلى فضاء يستحضر من خلاله الماضي، ويُنصت إلى الحاضر، ويأمل في مستقبلاً جميل. كما تدفع القارئ أيضًا إلى متعة في تتبّع الأحداث التي يسردها الكاتب، ونظر عقلاني لفلسفة الواقع.

نُدرك بعمق مدى التحام الكاتب بنصّه إلى درجة التّماهي، فيخترق بفعل هذا الالتحام أزمنة متفرّقة ومفاهيم فلسفيّة ثريّة وشخصيّات عظيمة ومعاني عميقة وخطابًا عقلانيًّا وأسلوبًا مرنًا في جماليّات الوصف، فتتَولّد من النصّ ذاته ألفة واستمتاع في القراءة. يتحوّل القارئ إلى صديق ويلتحم مع النصّ أيضًا. يجتمع الكاتب والقارئ في عالَم الخاطرات، بخبرة حياة منفتحة على ظواهر العالَم، فيربط جسد النصّ بمتعة الكتابة والقراءة وبكلّ عناصر النصّ التّاريخيّة والاجتماعيّة والفلسفيّة بأسلوب فنّي وجمالي.

فإذا كان «كلّ إدراك هو إدراك لـ... شيء ما مثلا، والحكم هو حكم على حالة شيء، وكلّ تقييم هو تقييم لحالة القيمة، والتمنّي لحالة من التمنّي وهلمّ جرا»[8]، وإذا كان كلّ شيء يرتبط بالإدراك فإنّ الأفعال هي الّتي تتباين فيتعذّر علينا إدراكها دون تشكّلها في صورة مرئيّة أو سمعيّة، وهذا ما يُحاول المؤلّف مُعايشتنا فيه، بواسطة توثيق حياته في كتاب، تجلّت من خلاله سيرة ذاتيّة. فمن خلال الاستماع إلى بعض من الأبيات الشعريّة والغنائيّة الطّربيّة وأوركسترا موريكونى أو من خلال تأمّل بعض من اللّوحات الفنيّة، تنبعث حياة الكاتب حرّة، فيكشف لنا عن عمق العالَم وقوّة «الإحساس بالعالم الخارجي»[9]. وهذا العمق الإحساسي هو سبيل يُعلّمنا إيّاه التّفكير الجمالي، من خلال تفاعل واضح لآليات السّرد الواقعي لبعض الأحداث. لكن كيف يتمثّل ظهور ذات الكاتب ويحضُر داخل النصّ؟

يجد قارئ كتاب (الخاطرات) بعضًا من التّقاطع بين خاطرات يستحضرها بوصفها ذكريات، فتحضر الآن في النصّ، ونَعيش معها الأحداث المُفرحة والمؤلمة، وخاطرات تحمل مذكّرات تعكس ذات الكاتب منذ نشأته الأولى وسيرة حياته الذّاتيّة، ونص الخاطرات تتداخل فيه أجناس مختلفة من أدبيات الرّواية والقصّة والفلسفة والتّاريخ. فلم تكن خاطراته سرديّة، بل مزجت بين التّفكير الجمالي والفلسفي، واستعادت بدايات أزمنة مختلفة وتواريخ أمكنة متباينة، دون الالتزام بقواعد السيرة الذاتية الأدبيّة الخالصة، ودون الارتباط بشروط فنون السّرد أو الرّواية، بقدر انفتاحها على أناها وبيئتها.

انشغلت الخاطرات بقضايا عالم المعيش، الذي يُعرّفه صاحب النصّ في سيرته الذّاتيّة، فيعتبر أنّ العالَم المعيش ليس فقط اللّحظة الرّاهنة التى نعيشها، وإنّما هو عالمنا الذي عشناه وعايشناه عبر زمن ممتدّ، منذ أن وعينا وأدركنا وعرفنا وفهمنا[10]. إنّها مصطلحات ارتبطت بفلسفة الجمال وحلّقت بنا في عالم معيش واقعي وخرجت بنا من منحى الظّهور النّظري الصّرف، إلى الحُضور الحياتي الفعليّ، فكشفت لحظات من الزّمن الثريّ.

تجمّعت هذه اللّحظات الزّمنية في سيرة ذاتيّة محوريّة بالنّسبة لصاحبها وبالنّسبة إلى مصر، التي كانت مسرح أحداث السّيرة وعلاقة المؤلّف بفلاسفة العالم العربي والغربي. إذ يُقدّم لنا سعيد توفيق جميع الأحداث والذّكريات والمواقف والأماكن من الدّاخل، وباعتباره فاعلاً فيها، ومرافقًا لأغلبها، ومصاحبًا لجلّ شخصيّاتها، ومشاركًا في تطوّرها. لكن جماليّة إنشاء هذه السّيرة الذّاتيّة وطريقة تفاعلها مع معاني بعض الظّواهر الإنسانيّة هي التي شغلت فكره وفلسفته وكتاباته المتنوّعة. فهو يقول: «إنّ ما يعنيني في المقام الأول باعتباري مهتمًّا في سائر كتاباتي بتحليل معاني الظّواهر، هو فهم معنى الظاهرة في تجليّاتها في عالمنا العربي على وجه الخصوص»[11] ومدى تأثيرها على الذّات وإنتاجها للمعنى.

إنّ مدار الخاطرات بما هي تَمَثّل لسيرة ذاتيّة، كتبها الكاتب بأسلوب جمع بين المذكّرات واليوميّات وكتابة جماليّة عن الأنا والآخر، من خلال تراسلهما وتداخلهما وبما هي تفاعل بين الواقع المرجعي والواقع التخييلي. فهي بنت فكر الفيلسوف ومجتمعه، وقد تميّزت خاصّة بعمليّة رجع الصّدى لمؤلّفات الكاتب ومحيطه وبتواصلها الفلسفي مع أغلب ما كتب في الخبرة الجمالية، مثل (دراسة في فلسفة الجمال الظّاهراتيّة) و(عالميّة الفن وعالمه)، رغم اختلاف صياغة الكتابين. فهل يمكن أن نكتب في الآن ذاته خاطرات وذكرى وحلمًا ومستقبلاً وفنًّا وفلسفة بصيغة فنومنولوجيّة؟ وهل يمكن أن نَثور على جمود العقل وموت الإبداع بكتابة سيرة ذاتيّة؟ وما الذي يحدث عندما تُطْرَحُ هذه الاستشكالات داخل حقل كتابة سيرة ذاتيّة في فنيًّا؟ وما الذي يقودنا كقرّاء إلى طرح مثل هذه الأسئلة؟ ما الذي تكشفه السّيرة الذّاتيّة وترتسمه في جوهر النصّ؟ وهل يكون عيش دون فلسفة كتابة وخبرة حياة؟

2.فنّ الكتابة وفنومنولوجيا الحياة

سواء كانت الخاطرات فعلاً واقعيًّا أو تخيّلاً، فإنّ المؤلّف يُحقّق من خلال فعل الكتابة التزاما فنيّا جماليّا، توقّفنا عنده في بعض محطّات الكتاب، وأدركناه من خلال فنّ الكتابة. إنّه يُحقّق بذلك التزامًا أراده لاستجلاء علاقة متطوّرة مع ذاته من ناحية ومع القارئ من ناحية أخرى، وما قد تتركه من أثر وبصمات في ذات القارئ، فتكشف عمّا آل إليه الكتاب في فلسفة الكتابة وفنّ الحياة. هذه العلاقة بين الكاتب والقارئ إنّما تدخل ضمن آليّات معنى الحياة الموسّعة. ومن خلال ما يرصده الكاتب من إمكانات الإثبات والسّلب أو التّحقيق والنّفي بين ذاته المبدعة للكتابة والقارئ المتقبّل وبين الجدل الذي يُحدثه الكاتب في ذاته وكيفيّة إظهار شكل مختلف في الكتابة، يتداخل فيها الأسلوب الفنومنولوجي.

إذا ما أكّد سعيد توفيق بأنّه لا وجود إلاّ للحضور الفنومنولوجي في فلسفة الكتابة، فهذا لأنّ الكتابة، بنظر الفيلسوف، تصيرّ فنًّا بليغًا. فذات الفيلسوف تحمل تمثّلات تكشف عن دلالتها العميقة في عمليّة الكتابة والحوار وعبر تجلّي الشّعور الحيوي والصّريح الصّادق. وكذلك الشّأن بالنّسبة لحياة النصّ الرّوائي الفنّي والسّردي والشّعري للسّيرة الذّاتيّة. لقد وصف لنا الكاتب جمال الحياة ودفء الأرض وعمق البحر وقوّة النّيل وهمسات الذّكريات ونظرة الأحبّة والابتسامات المضيئة والمرح الطّفولي المتألّق، وكلّ هذا الوصف يحمل فنّ حياة ويُذكّرنا بكتابه (معنى الجميل في الفن: مداخل إلى موضوع علم الجمال)، فيتقاطع الفنّ مع الحياة عبر نقطة فنومنولوجيّة في نفس تقاطع الكتابين، ونقصد بذلك نصّ (الخاطرات) ونصّ (معنى الجميل في الفنّ).

يحمل النصّان كتابة فنيّة لفنومنولوجيا الحياة يمكن أن تُشبع حاجات القارئ الجماليّة ويوقظ الحسّ البدئي وينمّي الذّوق. فيتأسّس على «فعل تلفّظي يكون فيه القائل منغرسًا في وضعيّة تلفّظيّة مخصوصة»[12]. كما يمكن إدراك بنية الانتظام الرّمزي للكتاب، والتّواصل مع دلالته، متجاوزين بذلك ثنائيّة الذّات والموضوع وثنائيّة اللّغة والخطاب وثنائيّة الشّبيه النصّي والواقع الفعلي؛ إذ يرتبط إدراكنا لفلسفة الكتابة عند المفكّر سعيد توفيق في نصّ السّيرة الذّاتيّة بخاصيّة الصّور الوصفيّة الحسيّة والمتعقّلة بخبرة الحياة، وبتجسّدها أيضًا عبر الكتابة الشّعريّة ورواية لسيرة ذاتيّة فلسفيّة.

لذلك يعمل إدراكنا على استحضار بعض من نصوص صاحب الخاطرات. وكأنّنا نَعيش فلسفة الكاتب وماضيه الحياتي ضمن الذّاتي والموضوعي والفردي والجماعي وجغرافيّة الأحداث وتاريخيّتها الواقعيّة وعبر تتبّع ظواهر الحياة وتصفّح مجموعة من الرّوايات والخاطرات والمذكّرات، فنحدس من خلالهم الماضي والحاضر والمستقبل. بهذا، يمكن إدراك ووصف وتأمّل كلّ تلك الأحداث فنحضرها بوعي فكري، خاصّة وأنّ ما يُدرك منها هو هذا الآن الحاضر، عند قراءتنا إياها. لكنّ الحديث عن الخاطرات بين فنومنولوجيا الحياة وفلسفة الكتابة وفنيّتها يضعنا ضرورة أمام مفاهيم عدّة، أوّلها مبدأ الالتزام. فكيف يختبر الكاتب هذا المبدأ؟ ما دور الكتابة في هذا المجال؟

إنّ إمكانيّة الكتابة هي من الإمكانيات التي تبدو لنا مشروعة لتحقيق الالتزام؛ لذلك يبدو لنا أنَّ فنّ الكتابة عند مفكّرنا، في حاجة للعودة إلى الأصلي بما هي خبرة حياتيّة حيّة في الحياة الانسانيّة، بمعنى انبعاثها من التّجارب الأولى لبعض الأحداث، فيُبدع في استدعاء صورها ويلتزم تُجاهها بفكر فلسفي في فنّ كتابة السّيرة الذّاتيّة. فكيف يمكن تصنيف هذه السيرة الذّاتيّة: هل هي نصّ أدبي أم رواية وهل هي كتابات متفرّقة، جمّعها في كتاب أم هي مجموعة مقالات؟ هل تتمثّل الخاطرات بوصفها شعرًا أم فنّا في كتابة الشّعر؟ هل ترتبط ببعض الكتابات الأدبيّة والموسيقيّة والشعريّة والتشكيليّة والفلسفيّة؟ هل تتمتّع ببعض من خصائص أدب السّيرة الذّاتيّة المقاومة؟

لقد كان المؤلّف الفيلسوف ملهمًا بالفنون المرئيّة والسّمعيّة، فأيقظا فيه كتابات أَحْيَتْ مسارًا معرفيًّا ثريًّا وانبثقت منه مفاهيم متنوّعة، استشكلها الكاتب بقوّة في فلسفته، ففعّلت أهدافه الجماليّة والفنّيّة والفلسفيّة والكثير من القيم الجماليّة. يقول سعيد توفيق في هذا الإطار: «أمّا في حالة القيم الجماليّة، فإنّه يكون من اللاّزم حدوث خبرة جماليّة كي يُمكن لهذه القيم أن تتأسّس؛ لأنّ تحقّق القيم هنا لا يكون متوقّفًا على قصد الفنّان وحده، وإنّما أيضًا على قصد الشّخص المدرك، الذي يكون قصد الفنّان موجّهًا إليه»[13]. ونحن بذلك نتفاعل إيجابيًّا مع الكتاب، ونتوافق مع قصد كاتبه لنكشف عن بعض القيم الجماليّة في النصّ، فنُحلّل ونُؤلّف ونُقارن علّنا نُحقّق إدراكًا موضوعيًّا للعمل، ونستخرج سُبل مقاومته من خلال الكتابة، وأبعاد قيمه الجماليّة والفنيّة وتقنياته الكتابيّة. فالامتياز في المهارة الفنيّة هو الذي يتمّ فيه العمل بكيفيّات «الوضوح والشّفافيّة في لغة العمل الأدبي» [14] والفلسفي والشّعري والفنّي.

إنّ الفنّي، في السيرة الذاتيّة (الخاطرات) هو الذي يُبدِّد الغموض، وإنَّ الحياة هي التي تُبدع الطّريق لهذا التّوافق بين الكتابة والعالَم وسُبل المقاومة الحرّة، وحيث الوضوح والشّفافيّة لغة أساسيّة لفنّ الحياة وجماليّتها. لذلك حين يُعلن سعيد توفيق بأنَّ الفلسفة تعيش استيفاءً لهذه الحركة المتمثّلة في الرّجوع إلى الأصلي والطّبيعي، فإنَّه يُجسّد، تبعًا لذلك، هذا التَّوق الباحث عن فلسفة مقاومة، ينغرس فيها نصّه فنيًّا في الحياة داخل أحداث حيّة. إنّها بالأحرى، مؤانسات فلسفيّة وتأمّلات في ظاهرات الحياة والوجود والفنّ والفلسفة، وإنّه ما نُدركه أيضًا في كتابه، المولود بعد (الخاطرات)، (في الفنّ والإبداع) رؤية للنشر والتوزيع، 2020.

يتجلّى النصّ أو فنّ كتابة السّيرة الذّاتيّة على أرض الحياة، بوصفها عطاءً يطلب تحرّرًا والتزامًا، يستهدف وظيفةً انسانيّة. وهذا ما نطلبه تجاه عالم عصيّ. ذلك هو الإنسان في الحياة

يطمح لتثبيت فنون حياته وخواطره ومصيره. وشديدة هي أيضًا حساسيَّته للكتابة، مثلما يُذكّرنا بذلك فيلسوف (الخاطرات) سعيد توفيق، فهو يحرص على الكشف عنها داخل خبرته الحيّة. فالحياة دائمًا هي التي تُقدِّم الإجابة الأولى للإنسان، فيما يخصُّ فلسفة الكتابة ولُغتها الفنيّة وفلسفة الموسيقى ونغمها الإفريقي والشّرقي والغربي، التي تُطرب النّفس برقيّ إيقاعها. فتتفاوت من شعب إلى شعب، ومن زمن إلى آخر. «فها هو ذا إينيو موريكوني Ennio Morricone الموسيقار الإيطالي الفَذ يُؤلّف معظم أعماله الموسيقية كموسيقى تصويرية لكثير من الأفلام الأمريكية الشهيرة»[15]. فكان لحديث الكاتب عن فنون الإنصات والطّرب الموسيقي، ولبعض السمفونيات الراقية أيضًا، حضور مكثّف في سيرته الذّاتيّة. فنراه يتساءل بعمق المفكّر المتأمّل لذاته عن السيمفونية السّابعة، وعن علاقة هذه السّيمفونيّة بالمكان الذي عُرضت فيه أوّل مرّة، واللّحظة التي عايشها بعد ذلك في «قاعة شاتيلي». وعن الواقعي وعلاقته بالخيالي والإبداع الفنّي، يقول: «الواقعي فهو ذلك الوسيط (الفرقة الأوركسترالية المعيّنة مثلا) الذي يحاول استحضار السّيمفونية السّابعة (كما لو كان يجلبها من عالم علوي إلى عالمنا الأرضي)»[16]. بذلك، يُثمّن الكاتب هذا الفنّ الخالص والأصيل، وينقد بشدّة كلّ الفنون المزيّفة والأخلاق الرّديئة والخطاب الذي لا يرقى بالإنسان والجمهور، فيُقاومه بشدّة.

ويردف: «يحتاج الإبداع دائمًا إلى وقود يُغذّيه، إلى دافعيّة، إلى الجمهور الذي يتلقّى رسالة المبدع ويقدرها حق قدرها»[17]. فإذا كان بول ريكور يعتبر اللّغة بنية ثابتة، فإنّ الخطاب يمثّل حدثًا بفعل تحقّقه وصيرورته الزّمانيّة. وإذا كان الخطاب التلفّظي يُبنى انطلاقا من أفعال تلفّظيّة تحمل رسالة، فإنّ نصّ الخاطرات مع ما يحمله من صور حياتيّة ينقل لنا أيضًا خطابًا شبيهًا بمستويات الخطاب الرّوائي، ورسائل في فنون الحياة الشّخصيّة؛ لذلك نجد تثمينًا للقيمة الحيّة، المنفتحة على بيئته والهويّة السّرديّة الجماليّة في النصّ؛ لأنّ القارئ سيتواصل مع جسد النصّ ضمن عالَم الحياة وينفتح على بنية معناه الحيّ منتجًا معنى ثريًّا عن العالَم.

يُحيلنا وعينا بقيمة النصّ إلى إدراك مادّته الحدَثيّة وواقعه ورموزه، وإلى ما بعد تمثّله اللّفظي، وإلى ما بعد تشكله الأوّلي في الذّاكرة، وإلى ما بعد تمثّلنا له لما هو موجود ولما هو حيّ، ليقول الكاتب ذاته إنّ هذا الإدراك الما بعد أوّلي، الذي يُحيلنا إليه المؤلّف والمتجاوز لما هو مادّي فيزيائي، هو إدراك يبحث عن فهم جمالي للحياة، وعن وعي فكري وفنّ لخبرة حياته في العالم. إنَّه أفق سعيد وحيٌّ، يُرْتَسَمُ للإنسان، ويطلب مستقبلاً فلسفيًّا وجماليًّا فنيًّا يتمثّل بحبكة قصصيّة. لقد حايث نصّ السّيرة الذّاتيّة للمادّة الوقائعيّة تجربة فنومنولوجيّة للمادّة الفكريّة في المجال النّظري، كانت قد أثمرت، قبل كتاب (الخاطرات)، العديدَ من الكتب، مثل (جدل حول علم الجمال)، وغيرها من الآثار القيّمة. فتجمّعت كلّ وحدات البناء الدّلالي في نصّ (الخاطرات)، ونصّ (جدل حول علم الجمال) لتُؤسّس وحدة قائمة على فكر فلسفي جمالي وأسلوب حياة. لكنّ هذه الوحدة لها أهميّة بمكان في تجسيد تقنيّة الكتابة، التي تتمثل في استقراء بعض الأحداث، التي ارتبطت بجماليّة سرديّة وروائيّة لدى الرّوائي الفيلسوف.

إنّ في تجسّد قيم البناء النصّي ومعالمه الجماليّة محافظةً على المبادئ النصيّة في مستوى

ترابط الأفكار وتوافقها واتّساقها وتجانسها، وما إلى ذلك. تَرتبط مجمل مفردات نصّ الكتاب بمدلول فكري جمالي في الوقت نفسه؛ فنحن نتعامل مع معان يرتبط بعضها ببعض. وحتى في مستوى استعمالات المفردات المجازية فإنّها لا تخرج من دائرة الكتابة الفلسفيّة ومظاهر تعلّقها بالفكري. لذلك يأخذنا نصّ السّيرة الذّاتيّة إلى نصوص كثيرة للكاتب، فكيف فتحت الخاطرات أفقَ منحى فنومنولوجي لفنّ السّيرة الذّاتيّة؟

على الرغم من خضوع مفردات النصّ إلى روابط دلاليّة خاصّة، وإلى أسلوب وصفي دقيق في سرد الوقائع، فإنّنا من خلاله نُدرك المعنى الفنومنولوجي، ومن الفنومنولوجي نُدرك معنى الخبرة والتّجربة الإجرائيّة للحياة. تَتلاحم وتَتلاصق وتَرتبط بشدّة جميع المفردات الشعريّة والمفاهيم الفلسفيّة، وينضمّ بمهارة شعريّة بعضها إلى بعض. فقد شمل نصّ كتاب الخاطرات عناية دقيقة بالحياة اليوميّة أحيانًا، دون أن يترك جانبها التأمّلي وأحيانًا أخرى كانت هذه الحياة مقتصرة على التأمّل الفلسفي، وهو التفكّر النّظري الذي اهتمّ بجهود فكريّة صارمة، لكنّها تسعى إلى بلورة ما عاشه في الواقع. فلا ضير في ذلك بالنّسبة إلى الكاتب المبدع، إذا اعتبرنا أن الكتابة هي البنية الأساس لسيرة ذاتيّة فنومنولوجيّة على أرض عربيّة، التي ينطلق منها الكاتب فتدعونا إليها بجميع تشكّلاتها رغم اختلاف أجناس كتابتها.

إن علاقتنا بنصّ (الخاطرات) تأخذ مسارين مختلفين: أوّلهما يُعنى بالرّبط الإحالي للنصّ ذاته، وهو النّواة التي نُحلّل من خلالها كل أبنية النصّ/ الحياة، وهو الذي نقصد من خلاله تصوّرات الكاتب الخاصّة، وكلّ العناصر الإشاريّة الإحاليّة لكلّ ظواهر العالَم. أمّا ثانيهما فيُعنى بالربّط المركّب على أساس الوحدة المجمّعة من النّصوص المختلفة، وما يمُكن أن تُقدّمه لنا من إضافة. وهذان المساران مترابطان، متلاحمان، متلاحقان. يحتاج المسار الأوّل، رغم ما يحمله من إفصاح وجودي وخبرة حياتيّة، إلى نظريّات المسار الثّاني، وما يحمله من نظر فلسفيّ، والعكس صحيح.

لقد سعينا، من خلال نصّ السّيرة الذّاتيّة خاصَّة، إلى معالجة عدّة مفاهيم ذكرها سعيد توفيق، تجد صداها في كتبه ودراساته النّظريّة الفلسفيّة، فننفتح أمام نسيج يشدُّ عدّة مفاهيم، مثل الفنّ والصّداقة والحريّة والعروبة والصّداقة والطّبيعة والعالَم والإدراك والوعي والحدس والجميل، وما تُحدثه هذه المفاهيم من جدل فنومنولوجي فيما بينها. يمكن النّظر في هذا الشّأن في (جدل حول علم الجمال). لقد جدّدنا قاعدة النّظر وطريقة القراءة للسّيرة الذّاتيّة، اعتمادًا على كتابات سعيد توفيق الفلسفيّة التّأويليّة، وأصبحنا نبحث عن أصول نظريّة لخبرات تمثّلات الحياة والأصل المفاهيمي للسّيرة الذّاتية، المتمثّلة في كتاباته الفلسفيّة وجماليّتها الفنومنولوجيّة.

يتفعّل هذا التمثّل لكتاب الخاطرات عبر خبرة فنومنولوجيا الحياة وفنّ الكتابة لتبلغا أرقى درجات إظهارهما وتُعبرّا عن سيرة ذاتيّة-موضوع حياة. لذلك يعود المؤلّف إلى تقصّي مرجعيّة ازدواجيّة النصّ والواقع ويُقيم تمييزاً بين النصّ-الذّات والنصّ-الموضوع، احتفاءً بحدث ظهور الرّواية جماليًّا. يُعتبر الكتاب افتتاحًا للرّوح الّتي تتجرّد عن كلّ منفعة، فتُترجم حريّة الإنسان بانفتاح مختلف رؤاه على العالَم؛ لأنّ الحركة الّتي بها ينفتح على العالَم هي في الحقيقة حركة ملتزمة بالتّفكير الفلسفي، وهي تُعيد دائما انفتاحها المقاوم بكتابة من جنس أدبي مختلف.

إنّ عالم الكتابة هو حقيقة الكاتب وعالمه يَتجسّد في فنّ الكتابة. لكنَّ الكاتب يبحث عن مكان أريض: خليق للخير، وأرض ليّنة طيّبة المقعد كريمة جيّدة النّبات، على حدّ تعبير ابن منظور في لسان العرب. مع الإشارة إلى أنّ بروز فلسفة الكتابة في كتاب (الخاطرات) لن يتّخذ الشّكل الأدبي المتعارف عليه، بقدر ما سيعمل داخل عدّة مفاهيم، كان قد صاغها الكاتب في كتاباته الفلسفيّة. لقد كان سعيد توفيق واعيًا برهانات التّجربة الأدبية وما يمكن مواجهته من ردود. لكن، إذا كان الردّ من منطلق فلسفي جمالي، فسيكون ردًّا مشروعًا وسيبلغ أوجه داخل تعيين كينونة فنّ السّيرة الذّاتيّة. بهذا المسعى نَسترشد سبل التفهّم والتّأويل بما أمكن من كتاب (الخاطرات)، وسنعتبر الكتاب أفقًا فلسفيًّا لخبرة الحياة، ومنعطفًا لفنون أدب السّيرة الذّاتيّة وفلسفتها في الكتابة الرّوائيّة المتخصّصة.

إنّها المتعة الّتي نكتسبها من قراءة نصّ (الخاطرات)، التي تأتي من فعل الإبداع وحريّة التمثّل ومن مبحث الظهور السيميولوجي ومن عالَم الحياة كما هو مُتناوَل مع رولان بارت، الذي كان له التّأثير البالغ في تطوير علم الدّلالة وإثراء عدّة مدارس، مثل البنيويّة، والماركسيّة، وما بعد البنيويّة، والوجوديّة. يقول بارت في هذا المجال: «إنّ ما أجده هو جسد المتعة»[18]. ولعلّ فنون المتعة في كتابة السّيرة الذّاتيّة تتجسّد بقوّة في مدى خبرة الكاتب في هذا العالَم.

تمُثّل فلسفة الكتابة لدى سعيد توفيق المنعطفَ لكلّ أدبيّات الكتابة العربيّة؛ وذلك بفضل ما أنجزته رواية سيرة (الخاطرات)، داخل التَّجربة الفنومنولوجيّة؛ إذ لا ينفكّ المؤلّف يطرح حواراته العصيَّة نسبيًّا مع أصدقاء مثّلوا هذا المنعطف، باحثًا عن شروط تحقّق فلسفي في فنون الكتابة الأدبيّة. إنّه منعطف نحو عطاء فلسفي لفنون الحياة في فنومنولوجيا السّيرة الذّاتيّة.

3. في عقلنة الواقع ونقده

لقد أشار سعيد توفيق في روايته الخاطرات، إلى ضرورة استقصاء ما تحمله الحياة من قضايا وتعابير حيّة؛ لأنّ الحياة تكشف عن اللاّمرئي، وتبحث عن تشكلات بعض القضايا عبر مسار تاريخي إنساني، فتُجدّد معه اللّقاء. أفلا تجد الرّواية، إذن، تربتها الأنطولوجيَّة في ظواهر الوجود عبر علاقة عضويَّة، تعبر كل منهما عن ذات الآخر؟ وهل من إمكانيَّة لعقلنة الواقع ونقده؟

يتجاوز القارئ بحدسه الفهم البسيط لسيرة الكتاب، ليقصد طابعها العقلاني في مستوى الجدّة والعمق والحذق والتّشويق؛ إذْ لا وجود لنصّ نقدي، وحياة تحضر جماليًّا، وتطلب قراءة عقلانيّة، فتتجدّد المعاني في كلّ نظام نصّي، وتعبير فكري، وتنوّع مفهومي. فيُدرك القارئ عنوان بعض الفصول وانتماءها الزّمني والمكاني وأبعادها الإنسانيّة والعاطفيّة والانفعاليّة المبهجة والجليلة والمأسويّة. لكنّ اللّحظات الإنسانيّة هي اللّحظات الحاسمة، الّتي يَرتحل من خلالها القارئ إلى معالم معان مجازيّة تأويليّة ديناميكيّة، لكنّها عقلانيّة، تختَبر حياة واقعيّة. فـ«فعل التّأويل ليس مُعاديا للمعنى، بل هو ما يفتح للمعنى أكثر من وجهة»[19]، فيُعيد صياغة وقائع الحياة الرّمزيّة، ويلج خباياها ويختبر العالَم، فلا نجد مانعًا في هذا المقام من أن نُطبّق هذه القاعدة النّقديّة، ونفتح للمعنى سبلاً كثيرة؛ لا سيما عند ارتباطها بظواهر معاصرة وحالات انسانيّة.

كما لا يجــد الكاتب مانعًا من أن يتحدّث عن حالات الاغتراب في معيش حياتنا اليوميّة، وينظر في ظاهرة «الفيسبوك» مثلاً، وكيف باتت الظّاهرة

تمَثّلات لحالة الاغتراب الإنساني خاصّة. يسعى الكاتب إلى نقد عدّة حالات مرضيّة في حياتنا اليوميّة المعاصرة، ومنها «الحالة الفيسبوكيّة»، التي يقول عنها في هذا الشّأن: «تلك الحالة التي أسميها «الحالة الفيسبوكية»؛ لأنها بالفعل تمُثّل حالة من حالات التكنولوجيا حينما يُساء استخدامها، بحيث تصنع وجودا آخر يُحلّق في عالم وهمي أو افتراضي على شبكة المعلومات [...] حالة من الاغتراب اليومي المَعيش تجعل من الوجود وجودًا عابرًا لا مقيمًا. يحدث هذا بوجه خاص في كثير من بلدان عالمنا العربي، وإن كان يحدث أيضًا في غيرها من البلدان التي يُساءُ فيها استخدام مكتَسبات التكنولوجيا»[20]، ومستجدّات التّقنيّات العلميّة ومحدثات التطوّرات الرّقميّة.

تُشكّل العلاقة بين السّيرة الذّاتيّة وظواهر الحياة المختلفة، في ظلّ مقاربتنا لكتاب (الخاطرات)، مبحثًا مختلفًا في أساليب النّقد، وفعلاً باحثًا عن عقلانيّة منطوية «على دلالة إنسانيّة عامّة تكشف عن روح أو شعور إنساني كلّي، أو منطويًّا على دلالة تتعلّق بلمحة من لمحات الوجود»[21]. ولن نُقدِّم في هذا المقام عرضًا للتَّاريخ الفنّي أو الشّعري أو الأدبي أو التّشكيلي، بقدر ما سنكشف عن أفق تأمّلي نقدي في هذه السّيرة الذّاتيّة، قليلاً ما وقع النَّظر إليه من خلال حقل خبرة الواقع الفعلي. فلا مناص من التَّعرُّض إلى استشكالات تؤكّد منذ البدء على وضعها ضمن إحداثيَّة مبحث عقلنة الحياة والإنسان والمجتمع. هنا يكمن الشَّاغل الرَّئيس المتمثِّل في مدى تجذُّر هذا المذهب الفلسفي في مبحث الرّواية، وعدم انخراطه ضمن إحداثيَّة تاريخ تشكّل صوري وعاطفي انفعالي لـ(الخاطرات) فحسب.

لا وجود إلاّ لفعل الوعي الحرّ، الّذي من خلاله نُعطي للنصّ عقلانيّة حاذقة ومعنى عميقًا. نُقوّض بهذا الفعل الحدود الفاصلة بين المرسل الكاتب والمتقبّل القارئ المؤوّل، وذلك هو الحدث الّذي يَرتسم عبر الذّات القارئة والمبدعة. وعليه، فلا مهرب من فلسفة النّقد، إلاّ أنّها تُوسّع معناها بتوسيع خبرتها الوجوديّة من خلال ظواهر الحياة والإنسان وعبق الرّوائح والذّاكرة.

لقد مثَّل المؤلّف دافعًا لذلك المنحى النّقدي في عصره وفي بيئته، بوصفه كاتبًا مصريًّا، يبحث في شؤون عقلنة الحياة ومحاورها الجادّة. كما أعطى قيمة كبرى للعاطفة والحبّ والفنّ والرّحلات والدّراسة والعمل والصّداقة والعائلة والأسرة والأمومة والوطن والهويّة والتّاريخ والسّياسة والفكر في كتابه (الخاطرات)، وفي مجمل كتاباته الفلسفيّة. فإذا كان الأثر المكتوب يُحافظ على عمق عالَم الحياة، فما الوظيفة الدّالة داخل ديناميكيّة الفعل المبدع لخبرة الحياة؟ وكيف يمُكن للكتابة النّقديّة أن تُفهم في فنون رواية السّيرة الذّاتيّة؟ إنَّ الإجابة عن كلّ هذه الأسئلة بنظر سعيد توفيق يتطلّب تعيينًا لطبيعة خبرة مفهوم الحياة، وفنون التّعبير في كامل حياتنا، وداخل خبرتنا اليوميّة وتجربتنا الحياتيّة، المرتبطة بـ«أحلام الطفولة، ودهشتها، وعبقريتها»[22] وجماليّتها.

فمن خلال العودة إلى ظواهر الأشياء ذاتها، تكون عودة الذّات إلى ذاتها. إنَّ هذه العودة قد فُهِمَتْ، على أنّها عودة إلى المحسوس اليوميَ عبر تجانسه مع الإبداع الفنّي والشّعري والفلسفي. وبهذه الحركة العقلانيّة المتجانسة أراد المؤلّف أن يجعل لكلّ لحظة إنيَّتها الحرّة رغم ارتباط اللّحظات بشبكة خاصّة وموحّدة بالزّمن والعالم والكتابة. وعليه، ارتبط فنّ الكتابة بالإبداع وبكيفيّة صياغة المنحى الفلسفي النّقدي، في رواية السّيرة الذاتيّة، فبنظر الكاتب، كلّ الكتابات الفلسفيّة والشّعريّة والرّوائيّة مبدعة. لكن إذا ما أبدع سعيد توفيق في كتاب الخاطرات، فلكي يُعبرّ عن نقده، أوّلا. وأن يكون نصّه حاملا لوظيفة تُحرّر الإنسانيّة من كلّ تشويه

وقبح، ثانيًّا. وأن تتوفّر في المبدع/ الفيلسوف حركة واقعيّة وجدل فكري حيّ، ثالثًا.

يُنادي الكاتب بتجربة عقلانيّة تنفتح على العالم، وعلى مؤلّفات أغلب ناقدي للواقع. ولعلّ فنّ روايته للسيرة الذّاتيّة تقوم بمسرحة بعض علاقاته منذ شعوره «بإشعاع الضوء من الطفولة نفسها»[23]. إنَّ الحقيقة التي انتهى إليها المؤلّف تُربك البعض، حين تُخلّص الإنسان من أمراض العصر، وتنقد موت الإبداع؛ ذلك أنَّ الشّاعر والفنَّان والفيلسوف في هذا الكتاب، في وضعيَّة أشبه بحال النّاقد المبدع، فهؤلاء جميعًا، محرجون أمام نفسه السُّؤال: كيف يكون الإبداع ممكنًا؟

يرى سعيد توفيق في كتاب (أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة) «أنّنا لا ينبغي أن نفهم الفلسفة كحركة للوعي أو العقل النّقدي كما لو كانت هذه الحركة مجرّد انعكاس لهذا الواقع، بل إنّها تعود لتُخصّب هذا الواقع وتفتح أمامه آفاقًا جديدة ليتجاوز ذاته، وبهذا تكون علاقة الفلسفة بالواقع»[24]. من هذا القول تتّضح علاقة الفلسفة بالواقع، وعلاقة الإبداع بواقع عالم الحياة، وعلاقة الفنّ بالواقع أيضًا، فنراه ينقد مدّعي الفنّ، فيقول: «ومدّعو الفن ممّن يقدّمون لهم بضاعةً رخيصة يستمتعون بها على المستوى الحي الغريزي، دون أن يحتملوا عناء الفكر والوجدان الذي يقتضيه كل فن حقيقي»[25]، غير مزيّف.

ولعلّه من البيّن، إذن، أنّ معالم بحثنا في نصّ (الخاطرات) وتمفصلاته الإشكاليّة، لن تتضح دون العودة إلى ببلوجرافيا الكاتب وسيرته الذَّاتيَّة؛ ابتغاءَ استشكال بعض من المفاهيم الفعليَّة، التي أصَّلت هذه السيرة الذّاتيّة على ضوء المقاربة الحقيقيّة لبعض المفاهيم المرتبطة بالفنون والأدب والشّعر والفلسفة وأهمّ خصائصها. بل إنّ حصر الإشكاليّات التي سعينا إلى تأمُّلها، يتطلّب رصد خصائص الذّات المبدعة في جميع الميادين، ولا سيما ذات الكاتب في هذا الأثر المبدع، للولوج من بعد ذلك إلى الإشكال الرّئيسي: هل السّيرة الذّاتيّة هي موضوع فعليّ لخبرة الكاتب في الواقع؟

في هذا الإطار، يُشدّد الكاتب على أهميّة خبرة الوجود التي تبدأ بالطّبيعة[26]، وتمرّ بالحضارة المصريّة القديمة، ثم تنتقل إلى حياة المجتمعات، فتستدعي العادات والتّقاليد والأغاني العريقة والرّوائح الطيّبة[27].ثمّ يُثمّن حياة الألفة مع الأحبّاء، وبعض علاقاته بالأصدقاء فيُعرّف الصّديق الحقّ بأنّه الوجود المهموم بهمّ صديقه، ليكون أقرب النّاس. إنّه القريب أيضًا إلى عالم الإنسان الأليف أو «الأثير». ثمّ يعترف أنّه قد عرف معهم أنّ أسعد اللّحظات، لا سيما تلك التي يتبادل فيها معهم الأفكار، والتي ما تنفكّ تربطه بعقلانيّة مشتركة وعميقة- ليست فقط نقديّة، لكنّها أيضا وجوديّة ذاتيّة، وسياسيّة اجتماعيّة، وفكريّة فلسفيّة، في مغزاها الواسع وفحواها الثريّ. لكن «رغم أهميّة حياة العزلة بالنسبة للموجود البشرى الأصيل، فإنّ هذا الموجود لا يمكن أن يحيا أيضًا بدون الأصدقاء»[28]؛ لأنّهم عالم من الألفة يتشارك معهم الهمّ والانهمام نفسه. إنّ الأصدقاء بالنّسبة لكاتب نصّ (الخاطرات) جزء أساسيّ من الوجود الحميم والمتآخ القريب. وهذا الوجود كان قد اختبره الكاتب نقديًّا في رحلة الكينونة، التي لا تنفكّ تبحث عن الوجود الدّائم والحميمي.

لكن ما الوجود الحميمي؟ «إنّه الوجود الذي نشعر فيه بالألفة»[29] في ظلّ قلقنا العدمي ووجودنا المتوتّر. إنّ هذا العالم الأليف هو الذي «نشعر أنه يتخلّلنا ويمتزج بكياننا، كما لو كان جزءًا منَّا، أو كما لو كُنَّا جزءًا من عالمنا، لأنّه يُشاركنا فى جزء من رؤيتنا لهذا العالم، واهتمامنا أو همّنا به. حينما لا تجد من يفهمك أو يستوعب ما يشغلك ويؤرقك، يبقى هنا الصّديق الذي يستطيع أن يفهم ذلك وينصت إليه كما لو كان يمثّل همّه الخاصّ»[30]. فلا

يمكن فهم ظواهر الواقع إلا نقديًّا، كما لا يمكن تعقّب الزّمانية المتمثّلة في النصّ إلا بما «هي طابع كلّ وجود أصيل، باعتباره وجودًا يحمل طابع الهمّ والتوتّر»[31] الوجودي، وقدرة على ملاحقة الذّاكرة. «لأن الزّمان هو الذّاكرة التي بدونها لا نكون شيئًا، وإنّما نكون نَسيًّا منسيّا؛ أي شيئًا سقط من حساب الزّمان»[32]. كذلك الشّأن بالنّسبة للمعنى في هذا النّص، الذي لا يمكن أن ينفتح إلا بالرّجوع زمانيّة نصوص مختلفة، كانت قد كتبت على مراحل متعدّدة للكاتب نفسه.

خاتمة

بما أنّنا اشتغلنا في هذا البحث على سيرة ذاتيّة واقعيّة، وظواهر حياتيّة لها تحقّقها الفعلي، فإنّ نصّ (الخاطرات) سيكون له تأثيره الإيجابي على تفهّم النظريّات الفلسفية لسعيد توفيق، وسيتطلّع كلّ قارئ إلى هذه السّيرة لتُؤكّد تمثّلات الفيلسوف في الشّأن الفلسفي؛ إذ كان لهذا الفيلسوف الفنومنولوجي المحبّ للحياة قصص كثيرة وذكريات عميقة، وكان لنصّ الخاطرات وجود يتموضع بين الفلسفة وفنّ الحياة وأشياء العالَم وتمثّلاته، فتحضر الظّواهر بعمق فنّي وروائي فلسفي. ولهذا يمكن القول إنّ أفكار المؤلّف تتجسّد عمليًّا عبر (الخاطرات)، ويمكن اعتباره بنيةً أساسيّةً ضمن مجموع نصوصه، رغم اختلاف بنيته عنها، لكنّه تجسيد لالتحام نصوصه الفلسفيّة مع واقع سيرته، فعايشنا توافُقًا جماليًّا بين النّظريّة والممارسة، وبين نقد الواقع وكيفيّة عقلنته. ولعلّها صياغة نقصد بها تثمينَ حركة الواقع والفعل والممارسة والخيال، وتخصيبًا للبعد الرّوائي في السّيرة الذّاتيّة؛ من أجل إثراء معاني ظواهر الحياة المعلنة في صميم السّيرة الذّاتيّة ومن صميم عالَم الوجود. فارتبطت الخاطرات بهذا الوجه اللاّمحدود في ضوء خبرة فلسفة الواقع فنومنولوجيًّا.

الهوامش

[1] سعيد توفيق الرئيس الأسبق لقسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة. وهو الأمين العام الأسبق للمجلس الأعلى للثقافة بمصر، وأستاذ علم الجمال والفلسفة المعاصرة بكلية الآداب جامعة القاهرة. له العديد من الكتب والدّراسات والتّرجمات والمقالات كما حصد بعضالجوائز، وتقلّد العديد من الوظائف والمناصب. انظر:

https//:ar.wikipedia.org/wiki%/D8%B3%D8%B9%D9%8A%D8%AF%_D8%AA%D9%88%D9%81%D9%8A%D9%82

[2] سعيد توفيق، **الخاطرات: التأمّلات الأولى في ظاهرات الحياة والوجود**، مؤسسة بتانة الثقافية، القاهرة، 2019.

[3] انظر أيضا للمؤلف:

الخبرة الجمالية: دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1992.

في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2002.

الفن تمثيلًا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2017.

نشيج على خليج حكايات وافد على بلاد النفط، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2007.

معنى الجميل في الفن: مداخل إلى موضوع علم الجمال، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2016.

تأويل الفن والدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2019.

عالم الغيطاني: قراءات في دفاتر التدوين، دار العين للنشر، القاهرة، 2008.

جدل حول علم الجمال، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2016.

تأويل الفن والدين: الفلسفة وعلم النفس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2017.

الفكر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2014.
عالمية الفن وعالمه، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2019.
[4] الخاطرات: التأمّلات الأولى في ظاهرات الحياة والوجود، م.س.، ص26.
[5] نفسه، ص63.
[6] انظر: المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.
[7] نفسه، ص103.
[8] Edmund Husserl, Idées directrices pour une phénoménologie et une philosophie phénoménologique pures, tome1: Introduction générale à la phénoménologie pure, trad. P. Ricœur (Paris : Gallimard, 1950), p.283.
[9] **الخاطرات**، ص21.
[10] انظر: نفسه، ص212.
[11] نفسه، ص247.
[12] محمّد بن عيّاد، **الكيان والبيان**، مطبعة التّسفير الفنّي، صفاقس، 2013، ص 126.
[13] سعيد توفيق، **جدل حول علم الجمال: دراسات حول حدود مناهج البحث العلمي**، م.س، ص105.
[14] نفسه، ص106.
[15] **الخاطرات**، ص55.
[16] نفسه، ص71. ويستحضر سعيد توفيق، في سياق عن سحر المكان وعبقه الخاصّ المنبعث منه رغم بُعده، كلمات أحمد شوقي الشعريّة، التي تغنّى بها الفنّان عبد الوهاب، وهي كالآتي:
[قَد يَهَونُ العمر إلاّ ساعةً***وتَهُونُ الأَرض إلاّ موضعًا]. انظر: نفسه، ص86.
[17] نفسه، ص72.
[18] انظر التّعريف الذي ورد في غلاف كتاب: رولان بارت، **لذّة النصّ**، ت: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1992، ص107.
[19] عبد العزيز العيّادي، **إيقاعات واستشكالات في فلسفة الإثبات**، دار نهى للطّباعة والنّشر، صفاقس، 2013، ص131.
[20] **الخاطرات**، ص249.
[21] **جدل حول علم الجمال**، م.س.، ص ص110-109.
[22] **الخاطرات**، ص21.
[23] نفسه، ص27.
[24] سعيد توفيق، **أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة**، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، القاهرة، 2015، ص46.
[25] **الخاطرات**، ص74.
[26] انظر: نفسه، ص ص31-30.
[27] انظر: نفسه، ص32.
[28] نفسه، ص103.
[29] نفسه، الصّفحة نفسها.
[30] نفسه، الصّفحة نفسها.
[31] **أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة**، م.س.، ص57.
[32] **الخاطرات**، ص85.